سالي إبراهيم..

(9) صفقة رابحة

فتَح عينيه ليجَدَ حوله أشخاصًا ينظرون إليه في عطف، ونظر حوله ليجد أنه يرقد فوق فراش فخم؛ في حجرة تشبه حجرات القصور، وفوق الفراش صورة لشخص مهِيب الطلّة، متقدّم في العمر، وتبدو عليه سمات الثراء الواضحة. حاول أن يتذكر أين هو؟! ومَن هؤلاء الأشخاص الذين يلتفون حوله؟! لكنه عجز تمامًا، وعندما رأوه يفتح عينيه ابتسموا جميعًا وهنأوه بسلامته؛ فأمرهم الطبيب بأن يتركوه ليرتاح، وتركه الطبيب بعد أن أعطى أوامره للممرضة بأن تعتنِي به وبمواعيد الدواء، وأن تتصل به إذا طرأ أي شيء، غادر كلّ مَن في الحجرة وتركوه وحده في حيرة من أمره: "مَن هؤلاء؟! بل من أنا؟!" قالها في نفسه ولم يجد إجابة. أغمض عينيه ليحاول أن يتذكر أي شيء، ولكن كان هناك صور وأحداث غير مفهومة تدور بعقله، ولم يخرج منها بأي شيء. تحامَلَ على نفسه وحاول أن ينهض رغم الدّوَار الذي كان ينتابه، وجد بجانبه عصا فخمة كالتي يحملها الملوك والأمراء؛ فاستند عليها وتجوّل في الحجرة عساه يجد شيئًا يتذكّره، وأثناء تجواله بالغرفة وقعَت عيناه على انعكاسه في المرآة، وهنا أصابه الذهول، بل لم يصدق عينيه لوهلة وكأنه ينظر إلى بورتريه، إنه ذلك الشخص المعلّقة صورته فوق الفراش، ظلّ يتأمل ملامحه في عدم تصديق، يحرك حاجبيه تارة، ثم يفتح فمه ويغلقُه تارة أخرى، يرفع إحدى يديه، ثم يرفع الأخرى! حتى تأكد تمامًا أن هذا الذي في المرآة هو نفسه، ولكن "من هذا؟! أكادُ أُجَنّ" قالها بصوت عالٍ، سمع طرقات على الباب؛ فسمحَ للطارق بالدخول، كانت الممرضة تدعوه لتناول

الدواء؛ فانصاع لها، ثم دخل الخادم ليسأله إن كان يريد شيئًا معينًا يتناوله على الغداء، فشرد قليلًا وأجابه:

– نعم.. هل تعرف الديك الرومي؟

فنظر إليه الخادم بدهشة ولم ينطق، فأكمل كلامه:

– أريد أن آكل ديكًا روميًا على الغداء.

وهنا رد الخادم:

– ولكن يا قاسم بك..

وكانت دهشته عظيمة عندما سمع اسمه لأول مرة، فتنَحْنَح وقال:

– ماذا دهاك؟

فأجابه الخادم:

– ولكنكَ يا سيدي ممنوع من تناول مثل هذه الأطعمة! وقد أعطيتَنا بنفسك قائمة بالطعام المسموح، ومعظمها من الخضار "السوتيه" والحساء منزوع الدسم.

وهنا تدخلت الممرضة:

– لقد ترك لك الطبيب قائمة طعام جديدة اليوم، وقد حدّد بعض أنواع الخضر وليس جميعها؛ فالقولون لن يتحمّل كل الأنواع، وقد نصح الطبيب بضربِ الطعام في الخلاط وتناوله على هيئة شراب أفضل.

وهنا فاضَ الكيل.. فاض الكيل، وضرب "قاسم" بكلتا يديه على طاولة كانت بجانبه، وقال لهم:

– من أنتم؟! وماذا دهاكم؟! بماذا تُهزُون؟ من أنا؟!

وسقط مغشيًا عليه.

وأفاق هذه المرة على صوت خادمه، وكأنه يسمعه يبكي؛ فسأله في وهن:

- أريد أن أعرف من أنا؟

فنظر إليه الخادم في إشفاق وحنو، وقال له:

- ماذا بك يا سيدي؟ منذ أن خرجت ذلك اليوم وتغيّبْتَ عن القصر أيامًا لا نعرف عنك شيئا، وذلك بعد أن أخبَرَكَ الطبيب بذلك الخبر المشئوم بحقيقة مرضك العضال الذي لا شفاء منه، من وقتها وأنتَ لست على طبيعتك، أصبحْتَ منزويًا، وكنت تدخل مكتبة القصر ولا تخرج منها، رفضتَ الطعام والشراب وكدتَ تموت هالكًا، إلى أن خرجت ذات يوم وأنت تحمل كتابًا قديمًا مهترئًا، كنت تحمله تحت إبطك وخرجتَ من القصر، واختفيت ثلاثة أيام، إلى أن وجدك عابرو السبيل ملقًى على الطريق؛ فأحضروك إلى القصر، ومن وقتها وأنت على هذا الحال، إن الأعمار بيد الله يا سيدي، و"كل نفس ذائقة الموت"، علينا أن نتقبّلَ أمر الله ومشيئته مهما كانت.

سمع العجوز هذا الكلام مصدومًا، ولكنه لم يرد؛ فهو لا يعرف ماذا يجري، وفي اليوم التالي قرر أن يغادر المكان ليبحث عن أجوبة، سأل الخادم أين ملابسي؟ وهنا أشار الخادم إلى زر بجانب الفراش، ضغطه لينفتح بابًا جانبيا في الغرفة؛ فدخل من خلاله ليجد خزانة للملابس بحجم شقة كبيرة، تجوّل فيها ليجد صفوفًا من القمصان والبذلات الأنيقة والأحذية الراقية الباهظة الثمن، وجميع أنواع الملابس؛ فانتقَى لباسًا أنيقًا، وهبط الدّرَج ليجد أن السائق في انتظار أوامره وتحديد وجهة الذهاب؛ فنظر للسائق بشرود، وكان يسأل

نفسه: "إلى أين أذهب؟" فطلَب منه أن يتجوّل في شوارع المدينة دون هدف؛ فامتثل لأمره دون نقاش وأخذ يجوب الشوارع في تؤدَة، كان العجوز يتطلّع إلى الشوارع وكأنه يبحث عن شيء ما لا يعرف ماهِيتَه، ثم أخبر السائق أنه يريد أن يرتاد الأماكن الشعبية، حيث وجد بداخله حنينًا غريبًا إليها؛ فأخذت السيارة تسير بين الشوارع والطرقات القديمة، مارّة بالمقاهي والكافيهات، وفي إحداها وجَدَ "قاسم" وجهًا مألوفًا بالنسبة إليه؛ فطلب من السائق أن يتوقف، وهبط من السيارة متجهًا إلى صاحب الوجه المألوف، وعندما وصل إليه بدا له وكأنه ينظر في المرآة، حدّقَ في وجهه طويلًا دون أن ينبسّ ببنت شفة، وبادلَهُ الآخر بنظرة غريبة، نظرة تحدي واضحة، فسأله العجوز:

- من أنت؟

فأجابه الآخر:

- بل قل: من أنا؟! ألم تردّد هذا السؤال منذ أفَقْتَ من غيبوبتك؟!

وهنا انتابته الدهشة، وقال:

- كيف عرفتَ أنني كنت في غيبوبة، و...

هنا قاطعه الشاب قائلًا:

- ما أنتَ فيه الآن ما هو إلا آثار جانبية نتيجة الانتقال، ستعتاد الجسم الجديد، أليس هذا ما كنت تريده؟ ألم يكن هذا ما اتفقنا عليه؟!

نظر إليه العجوز باستغراب، واستطرد الآخر:

- أنتَ من جئتني بقدميك.. جئتَ طالبًا مساعدتي، وكنت أبحث عن جسد، وعندما عرضتُ عليك الفكرة وافقتَ على الفور دون تردّد أو نقاش، بعد أن عرفتَ أنك سوف تكون غنيًا.. غنيًا جدًا، وقد حصلتَ على مبتغاك وأصبحتَ غنيًا بشكل أكبر مما يتصوّره عقلك، وحصلتُ أنا أيضًا على ما أريد، جسدُ شاب فتيّ، أقضِي فيه حياة مليئة بالمغامرات والإثارة، أنتَ بِعْتَ شبابك مقابل الثروة والجاه، وأنا تنازلتُ عن كل ما أملك مقابل شبابك، تلك كانت الصفقة، اعتدتُ أن أكونَ رجلَ أعمال ناجح، وبالنسبة لي هي صفقة ناجحة مائة بالمائة.

نظر إليه العجوز في ذهول، وارتسمت على وجهه علامات الرعب وعدم التصديق، "كيف حدث هذا؟! أين كان عقلي؟!" تردّدَت هذه العبارات بداخله، وتمنّى من كل قلبه أن يكون داخل كابوس ويستيقظ منه عاجلًا أو آجلًا، ولكنه أيقَنَ أن ما يحدث الآن ما هو إلا واقع مرير وعليه أن يعيشه شاءَ أم أبَى، وراح يجرّ أقدامه إلى سيارته الفارهة؛ حيث فتح له السائق الباب الخلفي ليدلفه بحرص؛ فعظامه لا تتحّمل الانحناء الشديد، وأمر السائق بالانطلاق والعودة إلى القصر، وقبل أن تنطَلِق السيارة ألقَى نظرة ملؤُها الحسرة على ذلك الشاب الذي كان بدوره يرمقه هو الآخر، ولكن نظرته كانت مختلفة؛ نظرة ظفر وانتصار، نظرةٌ تليق بمن حصل لتوّه على صفقة رابحة.